حسن خضر (*)

أرض حرام: مكان الإيروس ومكانته بين الفلسطينيين والإسرائيليين..!!

[١]

يروي أحد المثليين الإسرائيليين، في مقابلة أجريت معه، كيف أن فلسطينياً ضاجعه ثلاث مرّات خلال ساعتين في حديقة عامة، ثم طالبه بمكافأة مالية، لكنه رفض. وعندما احتد الفلسطيني هدده الإسرائيلي بالذهاب إلى مركز الشرطة، قائلاً إنه يجب ألا ينسى أنه عربي، وإن العربي لا يملك في ظل الحكم الإسرائيلي أن يكسب قضية ضد يهودي.[١]

وقد أثمر التهديد، رغم أن الإسرائيلي، واسمه شموئيل، يقول معقبّا على تلك الحادثة إنه لم يكن ليجرؤ على الذهاب إلى مركز الشرطة، ليس من باب الشفقة على الفلسطيني، بل لأن اعتراف يهودي إسرائيلي أمام الشرطة بواقعة كهذه ليس بالخيار الصائب. يمكن، إذاً، أن نفسّر سلوكه بطريقة محايدة: كل ما في الأمر أنه استفاد على المستوى البلاغي من انتمائه إلى الجماعة المهيمنة، التي تحظى بامتيازات يكفلها القانون، وتحميها بيروقراطية الدولة.

ومع ذلك، وفي السياق نفسه، لماذا لم يكن الذهاب إلى الشرطة بالخيار الصائب؟

يفتح هذا السؤال ما يشبه صندوقاً للعجب. فلن تنجو كل إجابة محتملة من تداعيات يصعب حصرها أولاً، للسردية الصهيونية نفسها. وثانياً، لعلاقات القوّة في المجتمع الكولونيالي. وثالثاً، لمكانة الإيروس في الصراع الفلسطيني-الإسرائيلي في فلسطين وعليها.

وبقدر ما يتعلّق الأمر بالنقطة الأولى، فإن الحادثة سالفة الذكر تمثل خاتمة مجازية مُفزعة لفكرة اليهودي الجديد، التي صاغها واستند إليها آباء الصهيونية الأوائل في معرض تبرير وتسويق «نفي المنفى» وإنشاء دولة لليهود.

قامت فكرة اليهودي الجديد، ضمن أمور أخرى، على فرضية مفادها أن اليهود فقدوا فحولتهم في المنفى، فأصبحت أجسادهم رخوة، وأصبح سلوكهم أنثوياً، وهذا يستدعي البحث عن بديل

(*) ناقد فلسطيني- رام الله

وما يعنينا، في هذا المقام، أن اليهودي الجديد، كما تجلى في ما لا يحصى من التمثيلات النصية والبصرية، كان نتاجا لتهويمات واستيهامات فالوسية تسعى للتدليل على، وتأكيد، ذكورة مستلبة. وقد أسهمت عوامل مختلفة منها: مركزية الجيش في المجتمع بعد إنشاء الدولة، والحملات العسكرية الناجحة، علاوة على احتلال مكانة الجماعة المهيمنة الحاكمة إزاء الفلسطينيين الذين فقدوا السيادة والهيمنة فأصبحوا محكومين، في إنشاء تلك الذكورة كمصدر دائم للاحتفاء والخوف.

وصفه ماكس نوردو «بيهودية العضلات»، واشترط تحقيقه بدولة يستعيد فيها اليهود فحولة الزمن التوراتي القديم وفتوّته .

والمفارقة، في هذا الشأن، أن الكلام عن السلوك الأنثوي لليهود، ورخاوة أجسادهم، وافتقارهم إلى الرجولة والشجاعة، كان جزءاً من بضاعة وهلوسات المعادين للسامية في أوروبا القرن التاسع عشر، حتى أن البعض حاول التدليل «علمياً» على كون الرجل اليهودي يحيض.

ومع ذلك، ذوَّت آباء الصهيونية الأوائل قدراً لا يُستهان به من التمثيلات العُصابية للمعادين للسامية، فأصبحت في نظرهم لصيقة بميراث المنفى، الذي أصبح التحرر منه مشروطاً بنجاح الصهيونية في خلق مجتمع ويهودي جديدين. وفي فلسطين، عثر المستوطنون الأوائل في ثمرة الصبّار على أفضل التمثيلات المجازية لليهودي الجديد، الذي ينبغي أن يكون خشناً وشائك الطباع من الخارج، وحلو المذاق من الداخل.

ويمكن العثور في الأدب العبري قبل إنشاء الدولة، وفي سنواتها الأولى، على ما لا يحصى من التمثيلات الأدبية للصابرا، الذي «ولد من البحر»، و«الذي يرضع الشمس بعضلاته»، كما جاء في روايات موشي شامير، وقصائد ناتان ألترمان، وغيرهما من أفراد الجيل المُسمى في تاريخ الأدب العبري الإسرائيلي بجيل البالماخ.

التذكير باليهودي الجديد، في معرض التعليق على الحادثة سالفة الذكر، يجد ما يبرره في حقيقة أن مختلف تمثيلاته النصية والبصرية كانت مثقلة ومشحونة بدلالات إيروسية، وإيحاءات جنسية، يصعب تجاهلها. وتُختزل تلك الدلالات، على طريقة ما قل ودل، في مشهد من فيلم بعنوان «العمل» يعود إلى العام ١٩٣٥ حيث نرى تنقّل الكاميرا، في لقطات مقرّبة close up، ما بين الأجساد القوية، مفتولة العضلات، وشبه العارية للمستوطنين، وآلات الحفر التي تغوص عميقاً في الأرض.[٢]

لم يكن اليهودي الجديد، الذي أرادت له التمثيلات النصية والبصرية أن يكون أشقر الشعر، أزرق العينين، ومفتول العضلات، كينونة حقيقية، إذ كان عدد هؤلاء في مجتمع المستوطنين- كما برهن عوز ألموغ في دراسة موّثقة جيداً قبل سنوات[٣]- قليلاً. ومع ذلك تملكت أسطورته، بعد إنشاء الدولة، عقول الإسرائيليين وقلوبهم. وعلى الرغم من حقيقة أن المجتمع الإسرائيلي شهد تغيّرات ديمغرافية هائلة على مدار العقود الستة الماضية، إلا أن الصابرا ما يزال حاضرا في المخيال العام.

وما يعنينا، في هذا المقام، أن اليهودي الجديد، كما تجلى في ما لا يحصى من التمثيلات النصية والبصرية، كان نتاجا لتهويمات واستيهامات فالوسية تسعى للتدليل على، وتأكيد، ذكورة مستلبة. وقد أسهمت عوامل مختلفة منها: مركزية الجيش في المجتمع بعد إنشاء الدولة، والحملات العسكرية الناجحة، علاوة على احتلال مكانة الجماعة المهيمنة الحاكمة إزاء الفلسطينيين الذين فقدوا السيادة والهيمنة فأصبحوا محكومين، في إنشاء تلك الذكورة كمصدر دائم للاحتفاء والخوف.

فهي دليل على نجاح مشروع فريد للهندسة القومية، وفي الوقت نفسه مصدر هشاشته، طالما أن وجودها يحتاج إلى ضمانات من بينها، مثلاً، أن يصبح الجسد الفردي حداً من حدود الهوية، وهذه مسألة إشكالية، في مجتمع متعدد الأعراق والقوميات. فهذا يستدعي، بدوره، ضرورة أن تصبح الميول والخيارات الجنسية موضوعاً لمراقبة وفلترة دائمة، في وضع تمحي فيه الحدود بين الجسد الجمعي العام للجماعة المهيمنة، والأجساد الفردية لأعضائها؟

على خلفية كهذه نعيد تشكيل المشهد:

يدخل يهودي إسرائيلي إلى مركز للشرطة الإسرائيلية، سارداً على مسامع المكلفين بحماية امتيازاته ومكانته كعضو في جماعة مهيمنة، ما وقع له قبل قليل مع عربي في حديقة عامة. وما وقع له قبل قليل مع عربي في حديقة عامة- وبقدر ما يتعلّق الأمر بالقيم الذكورية للجماعة المهيمنة- يمثل نوعاً مختلفاً من علاقات القوّة،

اليهودي الجديد ... جداً!

كانت الأولوية فيها للعربي، ناهيك طبعاً عمّا ينطوي عليه فعل كهذا من انتهاك وإذلال، خاصة إذا كان الفاعل عربياً، وكان المفعول به عضواً في جماعة مهيمنة نجحت في إلحاق هزائم عسكرية بالعرب، ولم يتردد أعضاؤها، على طريقة الفاتحين، في استنباط الدلالات الجنسية لمعنى النصر والهزيمة في الحروب.

ثمة، هنا، ما هو أبعد من فضيحة أخلاقية صغيرة. فعلى المحك في هذه الحادثة رهانات تاريخية وأيديولوجية، واستيهامات فالوسية يزيد عمرها على قرن من الزمان. وهي الرهانات نفسها التي تكلّم عنها دانيال بويران في معرض التعليق على ظاهرة دانا إنترنشونال. وهي مغنية إسرائيلية ذائعة الصيت، وُلدت ذكراً، ثم تحوّلت بفضل العمليات الجراحية والهرمونات إلى امرأة. فالمشروع الصهيوني بدأ، في نظره، بمحاولة إنتاج اليهودي الجديد ليصل في نهاية الأمر إلى دانا إنترناشونال.[٤]

في الحالتين ثمة ما يوحي بالفضيحة، إذ تُعامل الأجساد الفردية في مشاريع الهندسة الاجتماعية والقومية باعتبارها ملكية عامة، وامتداداً عضوياً لجسد الجماعة نفسها، وحداً من حدود هويتها.

لذلك، في «الطريق إلى عين حارود» لعاموس كينان، عندما يحاول ضابط إسرائيلي، وقع أسيراً في قبضة فلسطيني، قضاء حاجته، يطلب من الفلسطيني أن يشيح بوجهه جانباً: «فلا يجوز لعربي أن يرى مؤخرة جنرال إسرائيلي». في هذا المشهد الساخر، ثمة ما هو أكثر من حس بالفكاهة.

[٢]

يوصلنا ما جاء في الفقرة السابقة إلى علاقات القوّة في المجتمع الكولونيالي. وكما حرّضت حادثة المثلي الإسرائيلي على رصد ما تثيره من تداعيات في السردية الصهيونية، فإن حادثة أخرى بين فلسطيني ويهودية إسرائيلية تُسهم في رصد تداعيات إضافية لعلاقات القوّة بين الفلسطينيين والإسرائيليين.

خلاصة الحادثة: أن يهودية إسرائيلية في العشرينات من عمرها اتهمت فلسطينياً من مواطني القدس، في العقد الرابع من عمره،

بانتحال شخصية يهودي، واغتصابها عنوة، في سبتمبر (أيلول) ٢٠٠٨. وقد تمكنت الشرطة الإسرائيلية من تحديد هوية اليهودي المزعوم بعد أسابيع، والقبض عليه بتهمة الاغتصاب، ثم وضعته قيد الإقامة الجبرية انتظاراً لصدور حكم من المحكمة.

وبعد مداولات وإجراءات استغرقت عامين أدين الفلسطيني في يوليو (تموز) ٢٠١٠ بتهمة الاغتصاب عن طريق الخداع، بدلاً من التهمة الأصلية، أي الاغتصاب عنوة، وحُكم عليه بالسجن لمدة ثمانية عشر شهراً.

واللافت للنظر، في هذا الشأن، ما جاء في مسوّغات الحكم، فعلى الرغم من أن الحادثة لم تكن:

«حادثة اغتصاب كلاسيكية، وأن الجنس تم بالاتفاق، إلا أن الاتفاق تحقق عن طريق الخداع، وفي ظل ادعاءات باطلة.. فلو لم تعتقد صاحبة الدعوة بأن المتهم كان يهودياً أعزب، يبحث عن علاقة رومانسية جدية، لما تجاوبت معه».

هذا، ويضيف القاضي تسفي سيغال:

«المحكمة ملزمة بحماية الصالح العام من المجرمين العتاة ومعسولي الكلام، الذين يمكنهم خداع الضحايا الأبرياء بثمن لا يُطاق: حرمة أجسادهم وأرواحهم.. فعندما تضيع المقوّمات الأساسية للثقة بين بني البشر، خاصة في شؤون حميمية، حساسة، وحاسمة، فمن واجب المحكمة الوقوف بحزم إلى جانب الضحايا»[٥].

أقل ما يُقال في كلام كهذا أنه من العيار الثقيل أخلاقياً، شديد التقوى، ولا غبار عليه. ولكن الزوبعة الصغيرة التي أثارها الحكم بعيد صدوره، واهتمام جريدة «هآرتس» الإسرائيلية على نحو خاصة، بنشر أخبار إضافية، وردود فعل من جانب بعض المعلّقين الإسرائيليين، تبرر النظر إلى تقوى القضاة، وقيمهم الأخلاقية السامية، بكثير من التحفّظ.

اتضح، مثلاً، أن صاحبة الشكوى احترفت الدعارة، وعاشت في الشوارع فترة من حياتها، وأنها تعرّضت للاستغلال الجنسي من جانب أبيها، وأنها رفعت قبل القضية الأخيرة ما لا يقل عن ١٦ قضية ضد أشخاص اتهمتهم باغتصابها، فتم التحقق منها في بعض الحالات، ولم تتوفر القرائن الكافية في حالات أخرى. وقد تمكّن محامي الدفاع وهو فلسطيني، من التدليل أمام القضاة على تناقضات في شهادة المدعية، التي زعمت، مثلاً، بأنها كانت عذراء قبل حادثة الاغتصاب[٦].

ثمة ما هو أبعد من تقوى المحكمة، وتسامي القضاة، وما هو أبعد لا يحتمل اسماً آخر غير العنصرية. فلو كان الرجل يهوديا والمرأة عربية، مثلاً، لاختلفت معايير الصالح العام، ومعاني الاغتصاب عن طريق الخداع. وهذا، بالذات، ما لفت انتباه جدعون ليفي المعلّق في «هآرتس»، الذي طرح السؤال التالي في معرض التعليق على الحكم:

«ألا يدرك القضاة بأن الرائحة الكريهة لشعار النقاء العرقي «لا تلمسوا بناتنا» تفوح من حكمهم، ألا يعبر الحكم عن تلهّف قطاعات واسعة من المجتمع ترغب في حظر العلاقات الجنسية بين العرب واليهود؟»[٧].

هذا الكلام لا يندرج في باب المبالغة. ففي الأسبوع نفسه الذي ظهرت فيه مقالة ليفي، كانت شعارات وملصقات كثيرة، تدعو لحظر العلاقات الجنسية بين العرب واليهود، تغطي الجدران في مدينة بات يام الإسرائيلية، ومن بينها شعار نصه: «لن أسمح لهم بمغازلة أختي، ماذا ستفعل أنتَ إذا غازل عربي أختك؟». وقد نظّم القائمون على الحملة تظاهرة في المدينة لهذا الغرض[٨].

وفي استطلاع للرأي جرى قبل هذه الحادثة بعقد من الزمن عارض ٧٧ بالمائة من اليهود الإسرائيليين إقامة علاقات «رومانسية» مع العرب. وهذه النسبة في تزايد، بالتأكيد، إذا وضعنا في الاعتبار تزايد التعبير عن النزعات العنصرية والمعادية للعرب. ففي الآونة الأخيرة تكاد لا تخلو صحيفة إسرائيلية من أخبار وتقارير وتعليقات تغطي جوانب مختلفة في هذا الموضوع.

وفي دراسات مختلفة لعلماء الاجتماع، واستطلاعات الرأي، تبدو صورة الفلسطينيين سلبية جداً لدى جمهور اليهود الإسرائيليين، إذ ينظر إليهم هؤلاء بطريقة سلبية أكثر من نظرتهم حتى إلى العمّال الأجانب.

وبقدر ما يعنينا الأمر، نرصد في ختام مقالة ليفي تلميحات لقوانين النقاء العرقي، التي سنّها النازيون بعد صعودهم إلى سدة الحكم في ألمانيا، واستهدفت اليهود بشكل خاص، وهي المعروفة بقوانين نورمبرغ، وإلى قوانين التمييز العرقي، ومن بينها حظر العلاقات الجنسية بين البيض والملونين في زمن النظام العنصري في جنوب أفريقيا.

بيد أن التعليق على حكم المحكمة باعتباره ممارسة للتمييز، وعلى الرغم من صحته وضرورته، يستدعي تحليلاً أشمل لخصوصية المجتمع الإسرائيلي باعتباره نتاجاً لموجات متلاحقة من المستوطنين والمهاجرين، الذين تمكنوا من إنشاء دولة، وحوّلوا أنفسهم من أقلية في البلد إلى أغلبية مهيمنة عن طريق الهجرة وطرد الغالبية العظمى من السكّان الأصليين.

عموماً، يشعر اليهود الإسرائيليون بالتفوّق إزاء الفلسطينيين استناداً إلى فرضية يصعب التحقق منها استنادا إلى معطيات ديمغرافية وثقافية، وهي الانتماء بالمعنى الحضاري والثقافي إلى أوروبا، ناهيك عن كونهم يمثلون الأغلبية السائدة والمهيمنة، ويُضاف إلى هذا كله تقاليد قديمة ومتجددة حول تفوّق اليهود، وحتى كونهم شعباً مختاراً لدى بعض الأوساط. وإذا وضعنا في الذهن حقيقة أن الفلسطينيين هم العدو، الذي يغطي الصراع معه قرناً من الزمان، وأن صراعاً حقيقياً ومتعدد الأوجه يجري معهم على الأرض، يتضح مدى ما يسم هذه العلاقة الشائكة من تعقيد، وطبقات مختلفة للمعاني.

وفي سياق كهذا، فقط، يمكننا العثور لا على خصوصية ذلك المجتمع وحسب، بل وعلى قواسم مشتركة ـ وبقدر ما يتعلّق الأمر بالعلاقات الجنسية بين المستوطنين والمهاجرين من ناحية والسكّان الأصليين من ناحية أخرى ـ بينه وبين أنظمة مشابهة. وبهذه الطريقة يستعيد المسكوت عنه، في حكم لمحكمة إسرائيلية، تفوح منه رائحة العنصرية، حضوره، وتتجلى حقيقته الثقافية والتاريخية وأبعاده السياسية في زمان ومكان محددين.

وما يستحق الذكر أن علم الاجتماع الإسرائيلي شهد تطوّرات ملفتة في العقود القليلة الماضية، ومن بينها تحليل خصوصية المجتمع الإسرائيلي الثقافية والسياسية، ومؤسساته الاقتصادية والعسكرية، باعتباره مجتمعا كولونيالياً، استناداً إلى أدوات ومفاهيم شائعة في دراسات ما بعد الكولونيالية.

والمقصود، هنا، مقارنة المجتمع الإسرائيلي، ومحاولة التعرّف على خصوصيته، بالمقارنة مع ثلاثة نماذج معروفة لمجتمعات استيطانية: المستوطنة البيضاء (جنوب أفريقيا) والمزرعة الاستيطانية (الجنوب الأميركي) والمستوطنة المختلطة (أميركا اللاتينية). ومن أصحاب المحاولات الملفتة، في هذا الصدد، باروخ كيمرلينغ، الذي حاز قصب السبق، وأوري رام، وغرشون شافير. وهذه المقارنات مفيدة بشكل خاص في معرض تعريف المسكوت عنه واستحضاره.

[٣]

ما هو المسكوت عنه في النموذج الإسرائيلي، وكيف نسهم في استحضاره؟

ثمة إجابات محتملة، بيد أن كلمة واحدة في حكم المحكمة تمثل مفتاحاً لصندوق العجب. والمقصود، هنا، كلمة الخداع. ففي تسلل العربي تحت قناع اليهودي، ووصوله إلى جسد يهودية إسرائيلية، أكثر من دلالة تبرر الكلام عن جريمة ترقى إلى حد الاغتصاب، خاصة وأن «حدود الأمة منقوشة على أجساد النساء» كما تقول استير فوكس في عبارة موحية.

التسلل يعني الوصول إلى مكان ما خلسة. ربما يحدث تحت جنح الظلام، أو في حالة سهو من جانب المعنيين بمنع شخص غير مرغوب من الوصول إلى مكان ما، أو إذا انتحل غير المرغوب شخصية أخرى، أي وضع قناعاً مغايراً على وجهه بالمعنى المجازي للكلمة.

وقد تحققت هذه الدلالات مجتمعة في حادثة الاغتصاب المزعومة، إذ وضع المُتهم قناع اليهودي على وجهه، ونطق بلسانه. بمعنى آخر، لم يكن في ملامحه الخارجية، ولون شعره، أو عينيه، أو بنيته الجسدية، وكلامه، ما يميّزه عن أي يهودي آخر يعبر الطريق.

وبقدر ما يتعلّق الأمر بهوية اليهودي الإسرائيلي (الذكر والأنثى)، تبدو دلالات كهذه مُفزعة، لأن فيها ما يدل على هشاشة حدودها الخارجية، وسهولة اجتيازها من جانب آخر ينطوي وجوده على تهديد دائم، ويتجلى بصورة سلبية في ما لا يحصى من القوالب النمطية المتحيّزة والجاهزة. وفي هذه الهشاشة، بالذات، نعثر على ما يفسّر دعوات حرمان الفلسطينيين من حق السكن في مناطق يسكنها اليهود، والتحذير من إقامة علاقات «رومانسية» معهم.

عموماً، يشعر اليهود الإسرائيليون بالتفوّق إزاء الفلسطينيين استناداً إلى فرضية يصعب التحقق منها استنادا إلى معطيات ديمغرافية وثقافية، وهي الانتماء بالمعنى الحضاري والثقافي إلى أوروبا، ناهيك عن كونهم يمثلون الأغلبية السائدة والمهيمنة، ويُضاف إلى هذا كله تقاليد قديمة ومتجددة حول تفوّق اليهود، وحتى كونهم شعباً مختاراً لدى بعض الأوساط. وإذا وضعنا في الذهن حقيقة أن الفلسطينيين هم العدو، الذي يغطي الصراع معه قرناً من الزمان، وأن صراعاً حقيقياً ومتعدد الأوجه يجري معهم على الأرض، يتضح مدى ما يسم هذه العلاقة الشائكة من تعقيد، وطبقات مختلفة للمعاني.

كانت عملية إنشاء وحماية الحدود مصدر صداع دائم للصهيونية. فكرة العمل العبري، مثلاً، لم تنجم عن محاولة للحيلولة دون التنافس مع العمّال الفلسطينيين في سوق العمل، بقدر ما نجمت عن رغبة في الانفصال، وإنشاء كينونة اجتماعية واقتصادية منفصلة.

ويمكن تفسير الكثير من الإجراءات مثل الحكم العسكري، الذي فُرض على ما تبقى من الفلسطينيين داخل الدولة الإسرائيلية واستمر حتى أوائل الستينيات، وكذلك الطرق الالتفافية الخاصة بالمستوطنين في الضفة الغربية، والسور الفاصل، وإغلاق المناطق المحتلة في الأعياد اليهودية، لا باعتبارها ممارسات أمنية، بل ممارسات مادية ورمزية لخلق الحدود الفاصلة بين الجماعة اليهودية المهيمنة والفلسطينيين وحمايتها.

في إسقاط هذه النتيجة على هوية اليهودي الإسرائيلي (الذكر والأنثى) ما ينطوي على شبهة خلق قوالب نمطية للآخر. فلا ينبغي، في الواقع، النظر إلى الأفراد كوسائل إيضاح لجماعاتهم القومية أو الدينية.

ولكن، وبقدر ما يتعلّق الأمر بعلم النفس الاجتماعي، فإن الهوية الاجتماعية تنشأ في سياق الانتماء إلى جماعة بعينها. يحقق الأفراد فعل التماهي هذا مع الجماعة من خلال بلورة هوية اجتماعية لأنفسهم، وهي مستمدة في الغالب من تنميطات وقوالب سائدة لأفكار تحملها الجماعة عن نفسها وعن الآخرين.

وبالتالي يزداد ميل الأفراد للحط من قيمة، أو حتى التمييز ضد جماعات أخرى، كوسيلة لتحقيق التماهي، وتعزيز الإحساس بعضوية الجماعة. وغالباً ما تتحوّل ديناميات نفسية واجتماعية كهذه إلى رهانات حقيقية كلما أصبح قانون الجماعة المهيمنة حكماً بين مصالح أو ادعاءات متضاربة.

والمفارقة أن الإحساس بهامشية الوجود داخل الجماعة المهيمنة يحرّض، في حالات كثيرة، على تبني أكثر قوالبها النمطية الجاهزة تحيّزاً، للتدليل على صدق التماهي معها. وربما في أمر كهذا ما يفسر لماذا تزداد ظاهرة العداء للعرب في أوساط تحتل أدنى درجات السلّم الاجتماعي في الجماعة اليهودية الإسرائيلية المهيمنة، رغم أن هؤلاء لا يختلفون من حيث الملامح الجسدية، وحتى العادات الاجتماعية، عن العرب والفلسطينيين أنفسهم.

يصعب التفكير، مثلاً، بأن اليهودية الإسرائيلية صاحبة الدعوى، التي عملت بائعة للهوى في وقت ما، كان لديها ما يكفي من الوقت، أو الهموم القومية، للتحقق من هوية زبائنها، ومع ذلك وجدت في الهوية المزعومة للمُغتصِب ما يعزز من فرص الفوز في قضية تستمد مبررات النجاح من مرجعيات تتجاوز تفاصيل أو حقيقة ما حدث.

لذلك، وبقدر ما يتعلّق الأمر بطريقة الجماعة المهيمنة في تعريف علاقات القوّة، فإن لكلمة الخداع طبقات مختلفة المعاني، خاصة إذا انطوت على دلالات جنسية. نقرأ، مثلاً، في موسوعة الكولونيالية الغربية: «الجنس مركز الهشاشة في قلب الكولونيالية، فهو يزعزع تصنيفات العرق، والطبقة، والتراتبية، التي يؤسس عليها المستوطنون الهوية الفردية، والحقوق، والواجبات».[9]

ثمة، إذاً، ما هو أبعد من التزام المحكمة «بحماية الصالح العام من المجرمين العتاة ومعسولي الكلام، الذين يمكنهم خداع الضحايا الأبرياء بثمن لا يُطاق: حرمة أجسادهم وأرواحهم»، كما جاء في مسوّغات الحكم.

وما هو أبعد يتمثل في حماية حدود الجماعة المهيمنة، والحيلولة دون اجتيازها من جانب شخص يمثل الآخر، خاصة إذا كان من السكّان الأصليين، وهم، دائماً، بحكم تصنيفات العرق، والطبقة، والمكانة الاجتماعية، في مرتبة أدنى. ففي حال اجتيازها، وهذا ما حدث في مناطق مختلفة من العالم، تفقد المستوطنة البيضاء هويتها، وتطيح الهجنة بتصنيفات العرق والطبقة والمكانة الاجتماعية.

كانت عملية إنشاء وحماية الحدود مصدر صداع دائم للصهيونية. فكرة العمل العبري، مثلاً، لم تنجم عن محاولة للحيلولة دون التنافس مع العمّال الفلسطينيين في سوق العمل، بقدر ما نجمت عن رغبة في الانفصال، وإنشاء كينونة اجتماعية واقتصادية منفصلة.

ويمكن تفسير الكثير من الإجراءات مثل الحكم العسكري، الذي فُرض على ما تبقى من الفلسطينيين داخل الدولة الإسرائيلية واستمر حتى أوائل الستينيات، وكذلك الطرق الالتفافية الخاصة

عقلية الجدران: تجسيد على الأرض

بالمستوطنين في الضفة الغربية، والسور الفاصل، وإغلاق المناطق المحتلة في الأعياد اليهودية، لا باعتبارها ممارسات أمنية، بل ممارسات مادية ورمزية لخلق الحدود الفاصلة بين الجماعة اليهودية المهيمنة والفلسطينيين وحمايتها.

يسرد غيل إيال تفاصيل مدهشة في كتابه عن المستعربين اليهود، الذين سُمح لهم بعد قيام الدولة باجتياز «الأرض الحرام»، أي الحد الفاصل بين المجتمعين اليهودي والفلسطيني، في الاتجاهين، فقد شكّل هؤلاء في نظر مؤسسي الدولة والساهرين على حماية حدودها نوعاً من الهجنة، التي تحتاج إلى مراقبة وتطهير دائمين.[١٠]

وهذه التفاصيل مفيدة، بشكل خاص، إذا تصوّرنا مدى ما يثيره المهجنون الفلسطينيون الذين يجيدون العبرية، ولا تختلف ملامحهم عن ملامح اليهود الإسرائيليين، من قلق بشأن سلامة الحدود الرمزية للهوية السياسية والثقافية والعرق (رغم صعوبة التمييز بالمعنى العرقي بين الغالبية العظمى من اليهود الإسرائيليين والفلسطينيين وسخافة مفهوم العرق) للجماعة المهيمنة، التي لا ينطبق عليها نموذج المستوطنة البيضاء، ولا المزرعة الاستيطانية، أو المستوطنة المختلطة. يمكن العثور في خصوصية النموذج الاجتماعي اليهودي الإسرائيلي على عناصر مستمدة من النماذج الثلاثة.

وعلى سبيل التمرين الذهني، فقط، يمكن القول إن المواقف المحتملة لليهود الإسرائيليين إزاء اجتياز الحدود المادية والرمزية في الاتجاهين، تعكس تحيّزاً ضمنياً لهذا النموذج أو ذاك. وفي هذا السياق يتجلى المعنى الحقيقي لكلمة الخداع المُستخدمة في وصف تسلل العربي مقنّعاً بقناع اليهودي إلى جسد امرأة يهودية.

[٤]

ولكن، ماذا يحدث عندما لا يضع العربي قناع اليهودي على وجهه لاجتياز حدود «الأمة المنقوشة على أجساد النساء»؟

يقود هذا السؤال، بدوره، إلى العلاقة الإيروسية بين العرب واليهود. ربما يكتب شخص ما في يوم من الأيام كتاباً عن التاريخ الجنسي للصراع الفلسطيني-الإسرائيلي. فكما يُعاد التأريخ للحروب

والتحوّلات الاجتماعية الكبرى، استناداً إلى مناهج وفرضيات جديدة في العلوم الاجتماعية، من خلال نبش المسكوت عنه في تواريخ الهامشيين والنساء والأقليات، يمكن، أيضاً، كتابة تاريخ الصراع في فلسطين وعليها من هذا الجانب. والواقع أن لهذا التاريخ تجليات كثيرة في الحقلين الثقافيين الفلسطيني والعبري الإسرائيلي.

وما يعنينا، هنا، الكلام عن التمثيلات النصية والبصرية لتلك العلاقة في الحقل الثقافي لليهود الإسرائيليين، التي ازداد حضورها منذ نهاية الستينيات في سياق ما تُطلق عليه إيلا شوحط «عودة المكبوت»، وما أسماه بنيامين بيت هالحمي «عودة الفلسطينيين إلى التاريخ»، أي ظهور الفلسطيني مرّة أخرى في أعمال أدبي وفنية، بعدما كان جزءاً من المسكوت عنه في العقد الأوّل، وأغلب العقد الثاني من عمر الدولة الإسرائيلية.

إن استعراض تلك التمثيلات يقع خارج نطاق هذه المعالجة. فما يهم سماتها الرئيسة، وبقدر ما يتعلّق الأمر بجانب واحد يتصل بمكانة الإيروس في العلاقة بين الفلسطينيين واليهود الإسرائيليين. وما تجدر ملاحظته، في هذا الشأن، أن علاقات القوّة، والسردية الصهيونية، تتحكمان بطريقة إنشاء الفلسطيني وتنميطه كطرف في علاقة «رومانسية».

ففي الغالبية العظمى من التمثيلات يأتي الفلسطيني الذي يقيم علاقة مع امرأة يهودية من قرية، وفي صورة عامل، أو شخص يحتل مرتبة اجتماعية أدنى. وأشهر الصور النمطية شخصية نعيم في رواية «العاشق» ليهوشواع، والتي كانت ثاني تجليات عودة المكبوت في الأدب العبري الإسرائيلي، بعد رواية «مايكلي» لعاموس عوز.

ولكي يتمكّن الفلسطيني من اجتياز الحد الفاصل بين هويتين ينبغي عليه حيازة مؤهلات معيّنة، ليست اللغة من بينها وحسب، بل والاطلاع على آداب الإسرائيليين وتذوّقها والإعجاب بها. فنعيم العامل في ورشة لتصليح السيّارات، يروي عن بيالك، ولا يأخذ زمام المبادرة في إنشاء العلاقة، ويُنتظر منه قدر معيّن من النظافة في بيت صاحب الورشة اليهودي، أب البنت التي وقع في غرامها، الذي لا يتبنى مواقف متحيّزة ضد العرب، لكنه يُعاقب الفلسطيني بالنفي إلى القرية، بعد اكتشاف العلاقة.

ويتعرّض قروي فلسطيني آخر لمصير أشد قسوة في فيلم بعنوان «الخماسين» يعتبر في تاريخ السينما الإسرائيلية من أبرز تجليات «عودة المكبوت»، فيقع صريعاً بقرني ثور هائج، أطلقه صاحب المزرعة لقتله بعدما اكتشف علاقته الغرامية بشقيقته. وصاحب المزرعة، هذا، لا يتبنى مواقف متحيّزة إزاء العرب، بل ويحاول تقديم يد العون لأهالي القرية العربية المجاورة، للحيلولة دون الاستيلاء على أراضيهم.

وفي جميع الأحوال، فإن الفلسطيني لا يحضر باعتباره كينونة سياسية، بل كحالة إنسانية يستحق صاحبها المساعدة، ويتمكن من نيل الثقة، بحكم نزعته السلامية، ورغبته في تحصيل لقمة العيش، وخدمة صاحب العمل بهمة وكفاءة وإخلاص. لا وجود للسياسة عندما يحضر الفلسطيني، إلا بقدر ما يثير من مخاوف، وما يخضع لاختبارات تؤكد جدارته في نيل الثقة.

استناداً إلى هذه الصورة النمطية، تصبح العلاقة الغرامية شائكة ومعقدة، وغالباً ما تفشل وتنتهي بطريقة مأساوية، عندما يتحوّل الفلسطيني إلى كينونة سياسية، أو يُكتشف اجتيازه «لحدود الأمة المنقوشة على أجساد النساء» من جانب حرّاسها الذكور.

فهو إما كينونة مقطوعة اللسان، حسب تعبير يوحاي أوبنهايمر، أو وسيلة لاستحالة اللقاء في أرض حرام، كما خلص ديفيد جاكوبسون في دراسة لأعمال قصصية إسرائيلية تعالج علاقات «رومانسية» بين فلسطينيين ونساء يهوديات.

وبالقدر نفسه، فإن الفنتازيا الجنسية للنساء الإسرائيليات لا تنجو من التنميط، على الرغم من احتلالهن لتراتبية اجتماعية أعلى بالمقارنة مع العربي وقد أصبح موضوعاً للاشتهاء. وتحضر في هذا السياق ملاحظة لإستير فوكس، في معرض تحليلها لصورة المرأة اليهودية في المخيال التوارتي.

فالمرأة اليهودية مقارنة بغير اليهودية، معطوبة جنسياً، تعاني من خلل في تكوينها، تكون كزوجة مقموعة جنسياً، وكبنتُ منتهكة، وتحتاج باعتبارها موضوعا للجنس والأمومة لمساعدة (أو محفزات) من الخارج. لذا، يقوم بناء الهوية القومية الجمعية على قمع جنسانية المرأة، وحظر رغبتها الجنسية من ناحية، وتعزيز صفاتها الأمومية، وطهارتها، واحتشامها من ناحية أخرى.[11]

وهذه الملاحظة فائقة الأهمية. ففي حين لا ينبغي التعامل مع بني البشر باعتبارهم وسائل إيضاح لجماعاتهم الدينية أو القومية، لا ينبغي التقليل من تأثير المخزون الثقافي لهذه الجماعة أو تلك، على طريقة المنتجين المعاصرين في إنشاء صورها النمطية، وهويتها المتخيّلة، وحدودها.

وفي سياق كهذا يمكن تحليل صور النساء اليهوديات في التمثيلات النصية والبصرية باعتبارها نمطية، ونتاجاً لقوالب تقليدية، أيضاً. فالفنتازيا الجنسية لحنّا في «مايكلي» لعوز، تحيل إلى عطب من نوع ما، وإلى مكبوت يحتاج إلى عون من الخارج، فيعثر عليه في صورة

توأمين عربيين لا يعبّران في الواقع عن صورة حقيقية لاثنين من بني البشر، بقدر ما يجسّدان قوّة طبيعية غامضة، مخرّبة، ومُهددة.

والمفارقة في رواية «العاشق» استناداً إلى النموذج التحليلي نفسه، أن صاحب الورشة يطرد «العاشق» العربي، بينما ينفق أيامه ولياليه في البحث عن العشيق اليهودي لزوجته. وفي فيلم «الخماسين» لا يقتل اليهودي الليبرالي «العاشق» العربي لأنه اجتاز الحد الفاصل فأقام علاقة مع شقيقته وحسب، بل ولأنه يغار كذكر على استملاك العربي لشقيقة يشتهيها كأنثى.

الخلاصة، وبقدر ما يتعلّق الأمر، بمكان الإيروس ومكانته في العلاقة بين الفلسطينيين والإسرائيليين، أن اللقاء يتم، دائماً، في وعلى أرض حرام، طالما أن عبورها يعني اجتياز الحد الفاصل، سواء تسلل الفلسطيني مقنّعاً بقناع اليهودي، أو سافر الوجه. في الحالتين ثمة ما يحتاج إلى مراقبة، وفلترة، وتطهير، وما ينطوي على خديعة، وما يشبه الاغتصاب، من وجهة نظر الجماعة اليهودية المهيمنة على الأقل.

الهوامش

1 Raz Yosef, Beyond Flesh: Queer Masculinities and Nationa - ism in Israeli Cinema, (RUTGERS UNIVERSITY PRESS, New Brunswick, New Jersey 2004) P. 138

٢ **المصدر نفسه ١٢٩ -١٣١**

3 (Oz Almog, The Sabra: The Creation of the New Jew, Unive - sity of California Press;(2000

4 Daniel Boyarin, Unheroic Conduct: The Rise of Heter - sexuality and the Invention of the Jewish Man, University of California Press (1997)

٥ **جريدة هآرتس الإسرائيلية ٢٠١٠/٧/٢٢٢٠**

٦ **هآرتس ٢٠١٠/٩/١٧**

٧ **هآرتس ٢٠١٠/٧/٢٢**

٨ **يديعوت أحرونوت ٢٠١٠/١٢/١٩**

9 Thomas Benjamin, EDITOR IN CHIEF, Encyclopedia of Wes - ern Colonialism since 1450, Macmillan Reference USA (2006) P1007

10 Stanford University Press (2008)

11 Esther Fucks "Intermarriage, Gender and Nation in the He- brew Bible" in Danya Ruttenberg, *The Passionate Torah: Sex and Judaism*, NYU Press (2009)P.77